موضوعات سور القرآن

للدكتور مصطفى كمال وصفى

المستشار المساعد بمجلس الدولة

الطريقة المتبعة فى تفسير القرآن عادة ، هى طريقة تفصيل معنى كل آية أو جملة آيات على حدة ، دون محاولة الربط بينها وبين سائر آيات السورة ، واستخلاص المغزى العام أو الفحوى أو الموضوع الذى تعالجه السورة كلها بصفة اجمالية ، حتى لقد ساد الظن بأن السور ما هى الا مجموعة من الاحكام والموضوعات المتفرقة ، وأن ليس لها ـ كجملة ـ موضوع واحد تقوم عليه .

غير أن الواقع هو غير ذلك . فلم يكن القرآن ، وهو معجزة الكتابة ، ليفوته الضرب بالقدح المعلى فى طريقة الكتابة ومنهاجها . غير أنه نظرا لعمق الحقائق التى تدور حولها معانى القرآن . ونظرا لارتفاعها وسموها ، فقد خفت هذه الخلاصات عن الاذهان فى كثير من الاحيان . وبخاصة اذا عمد القرآن ـ ابداعا منه ـ الى تضمين هذه الخلاصة وراء السطور ، وترك القارىء معلقا ليبحث عنها بنفسه ويحاول كشفها حسب قدرته واستعداده .

وساعدت دسامة المعانى التى حواها القرآن فى كل جزئيه منه ، وكثرة ما تستدعيه من البحث والتحليل ، على شغل الناس عن تتبع الفكرة الجامعة فى السورة كلها والخلاصة الشاملة لها .

غير أن من شراح القرآن من عنى بالأفكار الجامعة فى السور . فقاموا باستظهارها وعرضها . فقد عرض الرئيس ابن سينا ، الموضوعات التى تضمنتها بعض قصار السور . كما أن بعض الاساتذة العلماء يقدمون ـ الآن ـ مقدمات لاذاعة التلاوة فى الراديو ، يعمدون فيها الى طريقة الاستخلاص العام والبيان الاجمالى للموضوع ، مما يبين بداعة لزوم الفكرة ويجعل العرض مشوقا .

وقد يكون من السهل ـ الى حد ما ـ استخلاص الموضوع الجامع لسورة قصيرة أو جملة آيات مترابطة .. أما السور الطوال ، فان استخلاص الموضوع الذى تدور حوله من أشق الامور وأصعبها ، لما بيناه من استيعابها لكثير من الصور البيانية والاحكام ، التى يصعب معها تتبع الموضوع العام .

ولكن ليس معنى ذلك أن هذه السور الطوال ليس لها موضوعات تدور

حولها . بل من الملاحظ أن لكل سورة موضوع واحد وفكرة واحدة تدور حوله من البداية الى النهاية .

ولا أدل على ذلك من سورة البقرة ذاتها ، وهى أطول السور وأكثرها أحكاما وجمعا للمواضيع المختلفة . فعلى الرغم من ذلك فقد وجدت لهذه السورة فى نفسى موضوعا واحدا دارت عليه آياتها من البداية الى النهاية ، وترتبت معانيها على هذا المساق فكانت آية من آيات الكتابة المنهجية ، وحسن الاستطراد بها لاقامة معنى عام تبتغيه .

فموضوع هذه السورة - كما بدا لى - هو بيان أصل الايمان ، وانه تصديق وتسليم بالغيب . وما يرتبط بذلك من أحكام العبادة والمعاملة ، مع ضرب الامثال على الذين حالت الكبرياء والأطماع الى صرف قلوبهم عن التصديق والتسليم ، ومقابلة ذلك بالذين أرسلهم الله بالتسليم بعقيدته ، ليهيب فى النهاية ، بالمؤمنين أن يؤمنوا بما أنزل الله ، حتى لا يغضب الله عليهم ويحل عليهم بالشدة كما حل على الذين من قبلهم . ورتبت معانى السورة على هذا المنوال لتدور حول هذا الموضوع وتهدى اليه .

وفى ذلك وضع الشارع الحكيم مقدمة عامة لهذه السورة بين فيها حال المؤمنين من أنهم « **يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** » . . ذلك لان الايمان لابد أن يتعلق بالغيب ، أى بما لا تدركه الحواس وحدها ، بل يستجمعه العقل من وراء مدلولات هذه الحواس . فالغيب هو مجال التصديق والتسليم ومحنة العقيدة ومجال التدرج فيها . أما الظاهر فانه لا يكون محكا للايمان والتصديق ، بل هو محل للادراك الحسى الذى يعتمد على الجوارح فحسب . وهو أمر يستوى فيه العاقل وغيره . فالمجنون والعاقل ، والانسان والحيوان ، سواء فى الابصار والسمع والشم والحس . ولكن استنباط الغيب من وراء ذلك أمر مخصوص بأصحاب البصائر والألباب . فاذا تعطل القلب وتبلد بما يرين عليه من الحجب والشغل بمفاسد الحياة ، كان صاحبه فى مدارج الكائنات غير العاقلة ، وصار بسبب هذه الغشاوة ضالا عن الحقيقة بعيدا عن الايمان ، لا تجدى فيه الهداية ، بل نراه يجادل بالباطل ويلج فى ضلاله ويتخبط .

ولذلك ، فقد وصف غير المؤمنين بان « **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة** » . وانه « **سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم** » . وأنهم « **يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون** » ضلالا منهم وأنهم لذلك « **فى ظلمات يعمهون** » . وشرع الله العليم الحكيم بعد ذلك يضرب الامثال على هذه القضية بقوله « **ان الله لا يستحيى أن يضرب مثلا** » وساق على ذلك مثلا من بدء الخليقة عن كبرياء ابليس وكفره وقارنه بحال آدم الذى لم يحل نسيانه ما عهد الله اليه به الى قبول المولى

جل وعلا له ، بسبب أن الله قد خصه بالعلم وهو نور العقل ، فلما تلقى من ربه كلمات ، فأتمهن ، تاب عليـــه . ولو كان آدم على حال ابليس من الكبرياء واللجاجة لما تغير حاله .

ولكن الله بين أن أبناء آدم ليسوا جميعا على منوال أبيهم ، فضرب مثلا من بنى اسرائيل وكيف أنعم الله عليهم ونجاهم من آل فرعون يسومونهم سوء العذاب وأرسل اليهم موسى بالكتاب لعلهم يهتدون ، ولكنهم - لطمعهم وانشغالهم بملاذ الدنيا يشترونها ثمنا قليلا بآيات الله - طفقوا يجادلون فيصارحون موسى بأنهم لن يؤمنوا حتى يروا الله جهرة . ويناقشـــونه طلبه أن يذبحوا بقرة ويتساءلون عن أوصافها ، ولو أنهم ذبحوا أية بقرة لأجزأتهم ، ولكن شقوا على أنفسهم فشق الله عليهم . وأنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون واتبعوا غيره من الســحر والكهانة ، وكانوا يعلمون الحق من قبل ويستفتحون به على الذين كفـروا . ولذلك فقد تساءل الله المؤمنين بقوله « **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ، وقد كان فريقا منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ؟ واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، واذا خلا بعضهم الى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ؟ أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون** » . وحالهم فى الحقيقة هو الضلال والعلم الكاذب لأن « **منهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى وان هم الا يظنون** » .

وبين الله طائفة أخرى من بنى آدم ، هم الذين خصهم بنعمة الاسلام ، أى التسليم بما أنزل الله ، وهو دين الحق ، وهم ابراهيم وذريته ، وكيف أنهم تعاهدوا على اتباع الاسلام ، وتتابعت الرســل عليــه من ابراهيم واسماعيل واسحق والأسباط وموسى وعيسى وسائر النبيين . حتى جاء محمد عليه أزكى الصلاة والسلام ، رسولا من ربه وأنزل عليه القرآن .

وبعد هذا العرض العام ، شرع الله سبحانه وتعالى فى بيـــان جامع لأصول دين الاسلام . فأورد أساس العقيدة بقوله « **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب** » (أى ممارسة الشـــعائر بلا ايمـــان) « **ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين . وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب . وأقام الصـــلاة وآتى الزكاة والموفون بعهـــدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس** » .. ويلاحظ أن هذه العقيدة كلها مبنية على التسليم بالغيب وهو « **الله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين** » . فالله واليوم الآخر والملائكة لا تدركهم الحـواس . وكذلك صفة الكتاب وكونه من عند الله ، وصفة الرســول وكونه من عند الله ، فهو من الغيب الذى لا يكفى فيه وقوع الحواس على ذات الكتاب أو شخص الرسول دون ادراك عامل الغيب فى ذلك وهو صلته بالله عز وتعالى.

ورتب على الايمان بالغيب أن يقدم الانسان ماله فى سبيل الله ، لان ذلك تفاه معنى بذل الظاهر فى سبيل الباطن ، ورجوع وزن الايمان فى النفس على وزن المادة فيها . وكذلك الحال فى اقامة سائر الشعائر كالصلاة ونحوها ، وفى معاملة الناس بالوفاء لله ، وفى استقبال نوازل الحياة بالعبر . فكل ذلك مرجعه الى التصديق والتسليم بالغيب . وهنا يدلل الله على أن حب الدنيا مانع من ذلك بقوله « **زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا** » .

وتستغرق السورة بعد ذلك فى بسط أحكام هذا الدين عبادة ومعاملة ، دون أن تصل بين أحكام المعاملة والعبادة ، حتى يستشعر المسلمون من ذلك أن الدين نسك ومعاملة . ونراه فى بسطه لأحكام كل منهما ، يقدم الأهم على المهم . ففى مجال التعرض للعبادة مثلا ، نراه بدأ ببيان القبلة لأنها الشعار العام للاسلام المحمدى . وقدم الصيام على سائر النسك لقوله عليه الصلاة والسلام على لسان رب العزة « كل عمل ابن آدم له الا الصيام فانه لى وأنا أجز به » أو كما قال . فنسبة التمحض والاحتساب فى الصيام أكثر مما فى غيره من النسك .

ثم تعرضت السورة لأهم أحكام العبادة من الجهاد والحج والصلاة والزكاة والتحريم والتحليل ، كل فى موضعه . وكذلك فى المعاملة بدأ بالأهم فقدمه على المهم . فنراه مثلا استهل العرض بذكر القصاص . لأنه قوام الأمن الداخلى فى المجتمع . ولا يمكن أن يقوم المجتمع ولا أن يسمى باسمه الا اذا ساده الأمن ، والا كان همجية وفوضى وعدوان . وكذلك نراه قدم الوصية على سائر المعاملات لأن نسبة التمحض فيها أكثر من سائر العقود . فالوصية تنفذ بغير رقابة الموصى . ولذلك فهى تعتمد على الوفاء والايمان . أما العقود فتحميها رقابة أطرافها لتنفيذها وقيامهم على الوفاء بها ، واثارة النزاع عند العبث بها . ولذلك كان توثيق العقود وكتابة نصوصها هو آخر ما تعرضت له هذه السورة الكريمة .

وعلى ذلك ، فمن الجائز القول بأن سورة البقرة على طولها ، ينتظمها موضوع واحد تدور عليه ، وتتلاقى مقدمتها وخاتمتها فيه وتعالجه طوال آياتها . وكذلك فلسائر السور موضوعاتها التى لا يصعب الاهتداء اليها بالقراءة الفرعية المكررة لها . ولا يفوتنى فى النهاية أن أقرر أن تعدد جوانب المعانى القرآنية وعمقها وامكان تدرج الفهم فيها من السطحية الى درجات التعمق على اختلافها تسمح لكل مستخلص أن يخرج من القرآن بالجانب الذى يلائم عقليته واستعداده واتجاهه ، واجتهاده مما يؤدى الى القول بأن فهم القرآن لن يستنفذ ولن يتحصل عليه بشر برأى قاطع يرتأيه . نفعنا الله بالقرآن الكريم وجعلنا الله من جملة خدامه .

مصطفى كمال وصفى
(الرفاعى)